شعر



١٩٩٩

شعبان يوسف

١٩٩٩

شعـــــــر

شعبـــــان يوســــف

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

١٩٩٩

في هذا العام
انفتحت له كوة
وظهرت أمامه جزر سحرية
ورأى ما لم يره من قبل
وسمع ما لم يسمع
فاحتارت سريرته
وانزاحت غمته
وانفلتت أحزانه
حتى أسمعت صرخته البر كله .

زمنُها

ستقهرني في الحقيقة رقتُها
وتشاكسني في الصباح مصابيحها
وتطل على زمني لحظة مثل شمسٍ
وتذهب
تاركة دفئها
وأشكو إلى ا   غيبتها
واختفاء معالمها
وأمارس بعض جنونٍ على ظلها
وأقول:
سأنهضها في حروفي
وأنطقها في حديقة شعري
وأذكرها في الذهاب
وأذكرها في الإياب
وأحمل كل مواقيتها ... عاشقاً

أقول الحقيقةَ:

كادت تحاصرني – أيها الأصدقاء – فضائلها

فاقتربت

وكانت تلملم كل تفاصيلها

ثم ترحلُ

عائدةً للمكان البعيد، وللعزلة الواسعة.

سأخلقها في الزمان النبيل

وأرصد بعض تواريخها القادمة .

٨ / ٤

لم أكن – حينما أقلبتْ – مبهجاً
مثلما قدرت – فكرت، لم أكن عازفاً جيداً
والمكان الذي ضمنا
سرنا
حطنا في فضائله
وانحنى
هزنا
أنه شائخٌ وعجوز
وذو حكمةٍ طازجة
فاصطفاها
ليسرد قصته مسهباً
حاشداً طاقة من حنين
فباحت موائده بالذي لم تبح
واستفاضت مقاعده في غناءٍ شجي

وأشرق عماله في فيوضٍ من الشرح
أدوا تحيتهم في جلال يليق بمقدمها
فانتشى كلما أطلقت جملةً
وتعالت إلى السقف ضحكتها
أطربت حفنة من أناسٍ
يكبون أنفسهم في مقاعدهم
يجلسون على قلقٍ
يفتحون عيوناً تحدق في دهشةٍ وارتباكٍ
فقالت له في دلالٍ:
سأحضر أمي لكي تستريح
وتنجو من العبث المنزلي
وتشهد تلك التماثيل قبل فوات الأوان
وفي ثقة قررت:
سيعجبها كل شيء هنا
ستنسى متاعبها
عندما تتلامس أطرافها بالمكان
وتشهد أبهةً تتلألأ في شرفات الزمان.

لم أكن مثلها
حاملاً لغةً حرة
لغة تستطيع الفكاك من القلق المستقر
ومن تأثآت اللسان
ومن حذرٍ كامنٍ في الحروف
يطاردني كلما نبتت في الكلام محاولة للخلاص
استغثتُ بربي
وناديت آياته البينات
وربحت لرحمته الواسعة ...
وقلت: ليرشدني بهدايته
ومضيت
طرقت على بابه سائلاً حاجتي
طالباً أن يدل خطاي على سبلٍ أحتمي في هواها
(وما لي غير الود منك إرادة
ولا في سواه لي إليك خطاب) [1]
آملاً أن أكون لها ...
أملاً أن تكون ...

---

[1] من كتاب طوق الحمامة للإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي.

وفي الروح كانت مشاغبةً تتسال
هاتفة بالمودة
بالرقة العاطفة ...
وبالعدل حين:
تكون السماء مشاجرة
وتصير البيوت التي قد تضيق
وتخنق سكانها: موقعاً
والمشاعر
إذ يصبح القلب مخطوطة للكلام المعاد: ملاذاً
وتنشد أسئلة أغلقت كل أبوابها
وتطرح أجوبةً لا تدوم
لم أكن – أيها الأصدقاء – حكيماً كما ينبغي
ولا نابهاً
ولا قارئاً لاكتشافِ الغموض
ولا فاضحاً للعيون
لذلك أربكني صدقها

خانني – في الحقيقة –

كل الكلام الذي كنت أحضرته في لساني

وضاع

ارتبكت – إذن

وانشغلت بترتيب أحصنتي الخشبية

رحت أدبج بعضاً من الحكم المستعادة

والمشرقة

ألملم نفسي

وبعض شئوني الصغيرة

أهذي:

(ولاقى في الهوى ألماً أليماً وقاسى الوجد وامتنع المناما

وأتقن حيلة الصب المعنى ولم يضع الإشارة والكلاما)[1]

لم أكن فاهماً للأمور البسيطة

فاندلقت خيبتي في البلاط الحميم الذي شالنا

فاعتدلت

وقمت

---

[1] من كتاب طوق الحمامة للإمام الفقيه ابن حزم الأندلسي.

استقمت
وصرتُ أردد في سرعةٍ:
ها أنا في ارتباك شديدٍ
ولم أستطع أن أقول لها:
إنني خائفٌ
فاتركني بعيداً
لكي أنحنى، خاشعا، لجلالك
كان المكان الذي أطلقت في شجيراته صوتها
ينثني
ويحدثها في هدوءٍ
ويرقص في بهجةٍ
كان يعلن عن نفسه – مشرقاً
مخبراً عن جواهره ورؤاه!!
وأسراره وهواه!!
وأحبابه المختفين عن الأعين الحاسدة
والجدار السميك الذي لم يكن واضحاً

اتضح
وانكشف
وتفنن في وصف رحلته، آسراً
كاسراً كل أشواقه
خاسراً كل غربته الغابرة
كان بهار في الحائط المطمئن يثرثر في ثقةٍ
ويعيد مشاهد رحلته للملأ ...
ويحدثها – في خصوصيةٍ – بالممر طويلاً
وكانت ترد عليه وتأمره
ثم تفرض ألفتها في الأزقة والأفئدة
وتشيد أسطورة في هواه
وكنت – أنا – في حضور مباهجها
أتفقد كل حواراتها
وأتوه
وكانت تقول مسالمةً:

لم أنم ليلةً كاملةً
لم أذق منذ هذا الصباح طعاماً
ولكننا سنظل ونبقى معاً!
تحت سقفٍ يظللنا في أمانٍ
ورحت أقول لها راجفاً
في البعيد ... البعيد
الذي سيعيد علينا حكايتنا
ستكون لنا قصة ناقصة .

٢ / ٥

ربما أفلتت جملةٌ

عكرت ماءها

غيرت مجريات الكلام

ربما شربت قهوةً مرةً

فاستعادت كثيراً من الذكريات

وراحت بعيداً

وجاءت إليه

وقالت له: أنا آسفة

فلم يستطع أن يقول لها: إنني عاشقٌ

إنني في هوائك أعرف أجنحةً

وأطير ... أحلق ... أعلو ...

ولم يستطع أن يقول الحقيقة عاريةً

واكتفى بقليل من البوح

قبلها في أناملها، خجلاً

واستراح

ليرسل أنشودةً في الوداد:

(يا حبايبنا

فين وحشتونا

إنتو فاكرينا

ولا نسيتونا

يا حبايبنا)[1]

وكان المكان الذي عوداه على أن يجيئا إليه

يشفّ

ويرقص

يسرد بعضا من القصص المدهشةِ

يفيض بألفته في حنانٍ

فيهمس عماله: ها هما عاشقان

ومبتسمان

ومرتبطان

وملتحمان

ويؤثر واحدهم أن يكون خفيفاً

---

[1] من أغنية الشيخ إمام، كلمات نجيب سرور.

فيحضر في أدبٍ ... بيرةً
بعد أن ينحني
ثم يرسل صوتا خفيفاً
يليق بحضرتها المشرقة
ربما طمأنت نفسه
أدخلت في سريرته بعض رقتها
حينما دلفت لحديث حميم
سيسلمها لحديث حميم
وكان يقاطعها دائماً، دون أن يعتذر
ويقول لها قصصا مضحكة:
إن واحدة من صديقاته الثائرات، تزوجها واحد ثائر،
فاسترابت، وعاودها الاكتئاب!!
وواحدة من قريباته، دشنت نفسها، مهاجمة دائماً،
لتذكر معظمنا، أنها ستمزق كل الذين يجيئون
للاقتران بها!!
وواحدة لم يكن يتصور يوماً
بأن نصاحتها سوف توقعها مثل وقعتها هذه!،

وتجند كل مواهبها لطلاء
تعاستها بقليلٍ من الخدع المبهجة
وبعض رفاقٍ قدامى
يحطون أنفسهم في طوابير مضحكة،
يسترون تواريخهم ... ربما ...
فتعقب في عجبٍ: مدهش!!
ضحكت
وبكت
وأضافت له:
" بأن زميلتها في الجريدة، تعمل في القسم، تسرق
سكرها، وتشوه أفكارها ... عمداً، وتجيء لمكتبها
كل يوم كعاصفةٍ مرعبةٍ ...
وأن فلاسفة للجريمة يلقون أنفسهم في مصائرها دائماً،
يعوقون – حتى – تنفسها في الهواء الشحيح،
ولكنهم يرتدون ثياب الفضيلة والحكماء "...
المكان الذي كان يعلن أسراره في سرورٍ

ويكشف عن نفسه، عامداً

يخلع كل ملابسه: قطعةً ... قطعةً

ويقول لها:

(نسمة حب تهب ساعةً

تكفر عن سيئات رياح العمر كله)[1]

ويبوح لها مشرقاً:

ها أنا سوف أحكي لك قصتي

وأواجه سيلاً من الذكريات سيغرقني

إنني منذ قرن ونيف هنا ... وأقف

أتقلّب بين وجوهٍ تطالعني

وعيون تخشّ إلى الغرف المغلقة ...

وتخدش سريتي ...

إنني آيلٌ للمحبة

أرصد، في ملل زمناً صاخباً ...

وأجهز نفسي لك

منذ وقتٍ طويلٍ

---

[1] من أقوال الشيخ عبد ربه التائه في " أصداء السيرة الذاتية " لنجيب محفوظ.

أهيئ كل شبابيك روحي،
وأبواب نفسي،
وجدران تلك الغرف،
وألوانها، وعمالها ...
وتلك المصاعد
والشرفات الحميمة
والدرج المستريح
وهذا البلاط البسيط
ولوحات " عبد الملاك "
وذاك الزجاج المعشق
والأنتريه
وقهوتنا
والذي يجلس الآن بين يديك
ومنفعلاً تائهاً في حضورك
ها أنني منذ قرن ونيف
أهيئ روحي مكاناً يناسب بعض صفاتك
حتى أفيض ... أميد ...
وأمثل بين يديك

لأركع منجذباً لجلالك

أهذي بجملة شيخٍ جليلٍ:

أقترح تعليق لوحة فوق مدخل الكهف يكتب فيها:

" ا   يديم دولة حسنك".

٦ / ٥

راعه
أنه
في مكانٍ قريبٍ من القلبِ
أدلى برغبته في الجلوس إليها
في مكان قريب من النيل،
خلف حديقته الآسرة
سيفضي لها بحديث طويلِ
ويفرج عن سره
ثم يشعل في الجو بعض جروح قديمة
وينقل رغبته في المثول أمام سعادتها
ليخلص روحاً مكبلة بالقيود.
وكانت تقلب شاياً
وتخنق رغبتها في الكلام

وتذهب شاردةً
كلما رفرفت في فضاء المكان عصافيرها
فيقول لها:
سوف أكشف نفسي أمامك كاملة
وأعرى جوانبها ... لحظة ... لحظة
وأخففها من همومٍ ثقيلة.
كان يخشى فصاحتها
ورزانتها
ونضوج رؤاها
ويبعد عينيه – مرتبكاً – عن مفاتنها
ويحاول أن يتفادى جنوناً يهاجمه لحظةً بعد أخرى
يهاجمه
فيمد يديه
ويقضم بعض أصابعها
وينازله
فيقوم وينهض

حتى يصيح
ويرقص بين الموائد
منتشياً بالضجيج الذي يتعالى
وكان يجاهد في قمع رغبته نحوها
ويقاتل من أجل سحب يديه تماماً ...
لكي لا يضايقها
ويعكر صفو الحديث
فيفسد تفاحةً أثمرتْ .
فاته
أن يقول لها:
إن هذا المكان الجديد جميل
وأرض الجزيرة تملؤه بالحكايا
وبالقصص العاطفية
صارحها:
إنني من هنا
وقضيت سنيناً أمارس عادة أن أتريض

أو أتزود بالعلم
أخرج في حفنة من صبايا وبعض شبابٍ
ونهتف:
(أيها الواقفون على حافة المذبحة
أشهروا الأسلحة)[1]
نشدو بأرواحنا الواثقة
وتعلو حناجرنا بالنشيد " بلادي "
وقال لها:
إن هذا المكان قديم/ جديد
وأنت تسيرين – مختالة – تحت أضوائه الخافتة
إنه لجدير بأن ينحني
حينما تقبلين
وينهض رواده واقفين
وكل مقاعده سترفرف في طربٍ وسرور.
كان بوشكين بالباب
يبدو سعيداً

---

[1] من قصيدة الكعكة الحجرية للشاعر أمل دنقل.

فحياهما
ثم أعلن في شغفٍ العاشقين
أنه سيجيء قريباً
ليقرأ شعراً بمكتبة القاهرة
وكان حميماً لدعوتهما للحضور
وأطلق صيحته في اتجاه بعيد
يعيد برقته منشداً:
(بروحٍ متلهفةٍ
نصغي إلى نداء الوطن
ننتظر في قلق أملاً
في لحظات الحرية المقدسة،
مثلما ينتظر شاب محب،
لحظات اللقاء الصادق)[1]
وأردف
وهو يولي إلى النيل وجهاً صبوحاً:
(مازلنا نشتغل بالحرية،

---

[1] من ديوان (عند نافذة الدموع) لبوشكين – ترجمة مكارم الغمـري – المجلس الأعلى للثقافة.

مازالت القلوب حيةً للشرف،
يا صديقي فلنكرس الوطن،
نفحات لقاب الرائعة) [1]
ويمضي بعيداً
ويتركهما، باسماً.
سيسألها بعد أن يصعدا درجا واسعاً
سيسألها وهو يبحث عن طرق تحتفي بالجديدِ
الذي يتكون
أي الأماكن سوف تكون لنا في القريب؟
وتنقذ ذاكرةً من ضياعٍ مؤكد،
وأي الشوارع، سوف تبعثرنا، وتؤازرنا
كي نمارس فيها حقيقتنا الضائعة؟
ويخفض من صوته حين يسألها مرة ثالثة:
ومن سوف يشهد قصتنا المربكة؟
فتسأله فجأةً:
وهل حيرة من طرازٍ فريدٍ ستأتي؟
سيسكت لحظتها

---

[1] من ديوان (عند نافذة الدموع) لبوشكين – ترجمة مكارم الغمري – المجلس الأعلى للثقافة.

حين يلحظ وشماً جميلاً
يقول لها:
إنه كالملاءةِ
يضحك
حين يذكرها بالسرير القديم الذي كان منذر ز.. م.. ـا.. نٍ
تنسقه أمه كل يومٍ
ترتبه لأبيه الذي يستريح على جهدها.
ولم يستطع أن يقول لها:
إنني في حضورك
أنسى شوارع كاملةً
ومدائن واسعةً
تتساقط من زمنٍ يتساقط في الذاكرة
إنني في حضورك
أفقد حاضر عالمنا
وأعود إلى زمنٍ أيقظته الطفولة والأسئلة .

راعها
أنها
أحرقت قلبها صدمةٌ خائنة،
فاستراابت لتجربةٍ غامضةٍ
ربما ستكون محيرة
أو تصير مهددة لأمان يظللها
فاتها أن تقول له:
إنني من زمان بعيدا أود ...
من زمانٍ بعيدٍ أريد ...
فلا ينبغي أن أصادر حرية لشعورك
يربكني الآخرون كثيراً ...
ويفترسون وقائع قصة روحي
ويبتسمون
إنهم يطلقون على جسدي نارهم
يطلقون نميمتهم ككلاب ستنهش لحمي
سأقهرهم بدخولي إلى عزلة
وكان يراقبها وهي تحكي

ويكتب في ورق يتناثر: ما أروعك
فتغمض عيني واسعتين
لتبحث عن جملةٍ صائبة
ثم تسكت باكيةً
كلما داهمت صوتها رجفةٌ
فيجفف بعضاً من اللؤلؤ المتساقط
يحملها عاشقاً وسعيداً
وتشمله نظرة دافئة
فيذهب منطلقاً، فاتحاً للهواء ذراعيه
مندهشاً: أن وقتاً طويلاً يمر خفيفاً
ويسرع دون انتباههما ...
فيسير.

هامش على متن ٦ / ٥

بعد أن شاغبتْ عاملات المحل
وقامت تغير بعضاً من الأطعمة
أصاخ لها جيدا
وهي تشكو له حكاياتها
ثم حاول ألا يقاطعها
كلما أرسلت جملاً تتحدث فيها عن الفن
والشعر، والاقتصاد، ورحلتها لأميركا
ومكتبة الجامعة،
وبعض زميلاتها المترفات
وعن أمها وأبيها اللذين يحبانها، وتحبهما
وأخيها المهذب
عن مفردات الحياة البسيطة
عن حلمها، وعن مرتشين يجيئون كل صباحٍ إليها،
وعن ورمٍ في الجريدة ينمو.

وعن لغةٍ أرهقت ناطقيها

وعذبت العاملين بها

وأفنت عيوناً لحراسها

أصاخ لها جيداً كلما شردت لتؤسس حريةً للكلام

وتفتح أقواسها المربكة

رقصت جملةٌ في الفضاء

فباح لها: إنني عاشق

تناثرت الأحرف الشائكة

فقاما

وهاما

وأسعدهما واحد كان يقفز فوق السلالم

ينشد أشعارها في سلام ...

أصاخ لها جيداً:

بعد أن كتبت اسمها مرتين

وعنوان فكرتها المدهشة .

١٣ / ٥

... ولم يستطع أن يقاوم أشواقه
فحدثها عن صبابته وهواه المفاجئ
لم ينتظر أن ترد عليه
ليرسل نجواه من طرفٍ واحدٍ
فيقول لها:
إنني لا أريدك أن تنزعي قشرة كونتها المواجع
أن تفتحي للهواء شبابيكك المغلقة
لا أريدك أن تكسري بابك المستبد برغبتك العادلة
وأصيخي لآهة مستضعفٍ يتقاطر بين يديك
أريدك أن تستعيدي لذاتك حضرتها
لترد الطبيعة ما خسرت من جمالٍ
لتغلق أسئلة حائرة
ولكنني
سوف ألقي بنفسي على عتباتك

أبكي
وأشكو إليك الحياة التي أفزعتني
وأرفع كفى مستنجداً بصفاتك
مبتهلاً
منشداً في رحابك
أسجد   شكراً لك، لأني اقتربت
وفزت
وجبت سواحل روحك
درت
وثم أخيراً
جلست على مقعد بجوارك
تأخذه من يديه كأعمى
وتجلسه في رعايتها
ثم تشال حائرة نفسها
- طيب؟
- لا أصدق ...

- ماذا يريد؟

- أتسعده رفقتي؟

- ربما!

سوف تنكر طيبته أولاً

لن تصدق بعض عباراته

أو تصدقها!

ثم تفتح قلبا مليئاً بدفء الحياة

وتشرح قصتها المدهشة

تغلق أبوابها

وتحلق في أفقٍ واسعٍ

وتطير

وتعلو

تخاطبه من بعيدٍ

تقول له:

إنني منذ أن صدمتني فظاظته

منذ أن طعنت في وضوح النهار حياتي

عزفت عن الناس

والأصدقاء
وتلك المدينة
أكره حتى الشوارع
والعمل المستقر الرتيب
مقر الجريدة
أكره كل الجرائد
والعاملين بها
والناس حين يبصون لي ذاهلين
فتنعق أصواتهم في الفضاء
ويفتعلون الوداد، وأسئلة زائفة
أكره ...
أكره ...
أجبرت أن أتمادى كراهية، يا صديقي!
أتعرف قدر تعاسة قلبي؟
أمندهش من حديثي إليك؟
عزيزي:
أنا لا أصدق أنك مثلي

وأنك تحيا جحيما يطارد نومك أو يقظتك
أنا لو صرخت هنا
سوف يسمعني من هناك ... بعيداً
وينشئ حولي سياجاً
ويكتب عني نشيداً
وتحفظه الكائنات جميعاً
سيهتز لي جبلٌ
وتمهيد سماء
سينشق لي نهر
وتفور دماء
جحيم يسلمني لجحيمٍ
وأسئلة دون أجوبة تتتالى
وأجوبة دون أسئلة في الفراغ
راعها
أنها
حينما أفصحت
أوضحت

واستفاضت قليلاً لترسم بعض المشاهد
كانت تقلب أوجاعها في قليلٍ من الحزن
تغمض عينين ساحرتين
وتفتحهما
حينما تستعيد كلاماً قديماً:
(لقد تركت حياتي في أيديهم)[١]
وتقفز بين أصابعها جملٌ ومعانٍ
فيظهر سارتر
بقامته في الكلام
يجهز حنجرة للصراخ
وينهض بين حكاياتها شامخاً
يحدق في وجهها فاحصاً
ويدقق
يزعق
يرقص
ينشد: كل الخلود لشعب فرنسا
وينثر أقواله في الهواء:

---

[١] عبارة وردت على لسان جارسان من شخصيات سارتر المسرحية .

الآخرون جحيم
الآخرون جحيمي
يجيئون مثل ذبابٍ كثيفٍ
يطنّون حولي
أنا سوف أصنع ماهيتي، وأجيء.
سيلحظ أن فلاسفة آخرين
يجيئون
حول حبيبته
يشهدون خرافتها
يهمسون لبعضهم: إنها رائعة
وينصت سقراط مندهشاً
ويحاذر في شرب قهوته
ثم يأتي أرسطو
ويفهمها
إنها ستحقق ما قاله في التهكم
يظهر كامو
يهرول في خيمة معتمةٍ

ويصحب سيزيفَ مرتبكاً
لا يجادل
تنصت في ورعٍ
وهي مذهولة من أهازيجهم
فيكاد يحدثها عن صديقته الحائرة
وعن بيتها
وغرفتها
ومقاعدها
وجنون أصابعها وهي ترسم أحزانها
ورقصتها حين كانت تغني
فتأخذه بين أسنانها
وتمزقه قطعةً ... قطعةً
ليذوب تماماً
وتقذفه سائلاً بين نيرانها
وهو يوشك أن يتهجى حروف اسمها
حينما سقطت – فجأة – دمعة
فبكى

واستعاد سريعاً ضراوة جملتها
عندما غرزت في المسافة بينهما حائطًا من حديدٍ
وقالت له: ابتعد!
ابتعد كي أراك
وآخذ فرصةً أن أتهيأ للانقضاض عليك
المكان الذي يجلسان به
ينعمان بألفته
واستفاضا لبعضهما في فضاء، توتره الأدخنة
واستضافا كثيراً من الأصدقاء به
لاحظا أن بوشكين أيضاً
يهوي الذهاب إليه
ليكتب بعض قصائده
ويقابل أقرانه الشعراء
المكان الذي يشعران أن أناقته زائدةٌ
يتقلقلُ
ثم ينوء بحملهما

تتذمر بعض موائده
فيقومان في لحظة واحدة...
يذهبان إلى شارع واسعٍ
ويتجهان إلى مسجد شاهقٍ
يرقبان حديقته الضيقة
ويندهشان لإغلاقها
يدلفان إلى النيل
حيث يميلان نحو رحابته
يرقصان
أما جلالته
فيبوح لها بالقديم
القديم الذي كأنه من سنين
وأسرف في شرح أشواقه
وحاول أن يستفيض
ويسهب، حتى يؤخرها لحظة
ليكونا معاً
فتنهض بين بلاغته جملة طرأت فجأةً:

إنني عاشقٌ للتي هزني صدقها

إنني عاشقٌ للتي مسني ودها.

٢٢ / 5

لم يكن جاهزاً في الصباح

لكي يتلقى تعاليمها الآمرة:

- لا تقل
- لا تبص
- ولا تنحني لحديثي إليك

فتحدث عاصفة في الكلام

- ولا تنتشِ بقليلٍ من الانتصار
- ولا تستفز صلابة قلب تمزقه الوخزات
- ولا ترتدِ – فرحةً سيدي

تؤدي إلى المستحيل!

- ابتعد
- لو سمحت
- ولا تقترب هكذا!

إنني أتربص بالمشكلات
انتبه ...
إنني لست فياضةً مثلما كتبتني رؤاك
ولست مفوهةً في الحديث
كما تستفيض قصائدك الحالمات
- فحاذر
أن تتشابك في شغبٍ وحوارٍ يقلب أحوالنا ...
استمع ...
إنني سألملم بعضي
وأذهب نحو ملائكةٍ طيبين
وأصرخ مشتاقة لمصير يخلصني من كوابيس تلك المدينة
أعرف أنك ملتبس دائماً
- لا تهز مشاعرك الطيبة
لتفك من القدر المتشابك
- لا تستجب لرغبتنا في الغرق
لأن البحار مراوغةٌ ومخيفة.

لم يكن ذاهلاً، لحظةً
حينما وجهت جملاً بددت غيمةً
عندما أطلقت بعض حكمتها
واستجابت لبعض هواجسه
ذكرته صديقته بصديقته
بهطول الخجل
وبالريح تعصف في أي وقتٍ
فأسلم رقصته للظنون التي هددت أمنه
واستغاث برغبته في النهوض
ليهرب من محنة محدقةٍ
وحاول أن يتريث
... كان المكان الذي أهملاه قليلاً من الوقت
يرخي سدولاً
ويطرق في حالة من أسى
وعماله ينحنون لهم في وداد ...
بكى
واستعد لكي ينحني للرياح التي ستكون

وزاد
وعاد
وقال لها:
طيب ...
أن يكون الصباح مليئاً بأحداثه المربكة
وأن نتبادل بعض الورق
وأن تتشابك أوجاعنا في نزق
وقال لها هادئاً:
سأرقص وحدي
وأصعد ... أصعد
حتى أراك تماماً
أعلق روحي – مشاغبة
أتشبث في حرفك المتوثب: ل
وأرفع مظلمةً للسماء
وأهتف وسط مظاهرة الشعراء:
خذوني إليها
أنا العاشق المتطرف

أسرع ممتزجا بجنوني
ويحملني الشوق صوب فنائي
يقول بها:
طيب
أن أقول لك في الصباح:
أصدقائي الذين أحب قصائدهم
رحلوا
ومضوا
هكذا سافروا
غامروا بقليل من العمر كي يرجعوا.
على عجلٍ ...
مثل أسئلة شائكة ...
اسمحي لي:
سأقرأ بعض مقاطع مظلمتي:
(خلف أشياء بسيطة، أخبئ نفسي لتجدني
وإذ لم تجدني،
ستجد الأشياء
... تلمسها،

تلك التي لمستها يدي

وستمتزج آثار أيدينا)[١]

ثم أكمل:

(فيه أكيد حاجة هتحصل غير السيناريو ده

أو يمكن حصلت ... وأنا مشغول بفك رباط

الجزمة الملفوف على رقبتي)[٢]

(لا حميمية نظرتك، ولا حاجبك المشرق كيوم عيد

ولا منة جسدك الغامض لم يزل،

المتحفظ والطفولي

ولا ما يأتيني منك عن حياتك،

المستقر في الكلمات أو الصمت

سوف يكون هدية غامضةً

مثل رؤيتك نائمة مكتوفةً

في يقظة ذراعي) [١]

---

[١] مقطع من قصيدة " يانس ريتسوس " ترجمة حسن سليمان – ذلـك الجانب الآخر.

[٢] مقطع من قصيدة الراحل مجدي الجابري – الحياة مش بروفة.

يسكت بعض دقائق ...
ليذكر أن مشاحنة تتصاعد
بين جنود صغارٍ ومحترفي البطش
تسقط تحت مجنزرةٍ جملةٌ:
(ليحب أحدكما الآخر، لكي لا تجعلا من الحب قيداً
بل أجعلاه بحراً متدفقاً بين شواطئ أرواحكما
وليملأ أحدكما كأس رفيقه، وحذار أن تشـربا مـن كـأس واحدةٍ)[2]
وليرفع في وجه طائرةٍ رايةً
تدل على وجهٍ
وتشير إلى ألم يتمدد في جسد كامل
(ألقيت من البر التباريح بعدما لقيت من البحـر ابيضـاض الذوائب
إلى ا أشكو سخف دهري فإنه يعـابثني مـذ كنـت غيـر مطائب) [1]

---

[1]من ديوان (عند نافذة الدموع) لبوشكين – ترجمة مكارم الغمري – المجلس الأعلى للثقافة.

[2]مقطع من كتاب " النبي " جبران خليل جبران

سيقرأ مظلمة
واثقاً أنه في صفوف المظاليم والأبرياء
يذكرها بالحديث القديم الذي ساقه
حينما كان يسلخ أشواقه:
(في الصباح البعيد ... البعيد
حلمت بها
ورسمت لها لوحة زاهية) [٢]
سيقرأ في ثقةٍ كل ما دونته يداه
لينسخ مظلمةً
ضامناً أنها ستكون أمام محاكمةٍ عادلة.
وسيختم جملته قائلاً:
طيب ...
أن نكون حبيبين في درج واحدٍ...
أو نقاتل ضد فراق أكيدٍ...
ونمسك خيط مودتنا
والذي لا أصدقه:

---

[١] مقطع من ابن الرومي
[٢] مقطع من – تظهر في منامي كثيراً – شعبان يوسف

أن نكفن بعض حوائجنا
ونودع رغبتنا مثل طفلين
ينصرفان عن البهجة الآسرة
لم يكن – يومها – ينتظر
في المساء القريب
أنه سوف يذهب
في ثلة الأصدقاء
ليبكي
ويذرف بعضاً من الدمع في خلسةٍ وحده
يشيع وردة أصحابه
ويدفنها في التراب
يشاهد أقرانه يلعنون مصائرهم ... خائفين
ويمضي وئيداً
ومنطوياً صامتاً
ويدبج مظلمة ثانية
سقطت حالة الانطواء
وراح يصرح في تعب لجلالتها:
إنني لن أقاوم رغبتك في هدوءٍ تعيشينه

ولن أتمادى كما كنت في حالة من غياب
وسوف أقاوم أشواق روحي
وأقمعها
وأحط عليها جنوداً شداداً
وأكسرها بضراوة وحشٍ على ركبتي
لكي أرتدي في سلام ثياباً مهذبة
وأجيء إليك كلوحٍ من الثلج في مثل هذا الصباح الأليف
لنشرب قهوتنا في أمانٍ
لن يهدد أوقاتك هاتف مزعج
وأجنب خلوتك المطمئنة
بعض رنين سيهذي ويخدشها
- سأسلم أسلحتي للعدو
وأرجع منكسراً كجريح
أطأطئ رأساً وألعنها دائماً
عادة لم تفارقني منذ أن كنت طفلاً ...
- سأدفن كل مشاعر قلبي
وأنهرها
وأقيم عزاء كبيراً

وأدعو القصائد
والأغنيات
لكي أتمدد فيها
أنام مساء على بعض أنغامها
وأودع آخر قنينة
وأفيق
سيكتب فوق كراريسه: إنها مربكة
ويدلف – في آخر اليوم – نحو حديقته الآسرة
ويجلس فوق حشائشها هادئاً
ويسرب أشواقه في الفضاء
ويذهب مثل قساوسة طاهرين
ويرفع صلبانه في الهواء
وينظر للرب مستسلما
ويخادع روحاً
ويجلدها
ثم يسلخها
كلما جهرت ألماً
ثم يدخلها في صناديقه الماكرة

١٢ / ٦

... وصارت تعلمه مفرداتِ الحياةِ
تدربه في نظام دقيقٍ
على أن يجيء صباحاً
ويرسل أشواقه في اضطراب ... ستلحظه
وستفتح أوراقها في حذر
عاله ينتظر ...
أن تفاتحه ...
فيبالغ في وصف محنتهِ
ربما سيقول لها:
إنه منذ وقت طويلٍ ... طويل
يود، ويرغب في رفقة ومودةٍ،
وفي حفنةٍ من بشر.
فيقدم طاعته
عاشقاً وقتها

ظلها
واضعاً نفسه كلها في شذى أرضها
راغباً في حديث،
سيخرجه – قطعاً – من رطانة أصحابه الخبثاء ...
ويدخله في تفاصيل صمت قليلِ
وبعض كلام
وأسئلة – ربما – سوف تربكه ...
هاتفاً:
حاجتي أن أكون جوارك
نصنع ألفتنا،
وتواريخنا
حاجتي
لغة ... نبحت كذبا واضحاً
يقلدها
يتعلم أن يتكلم مثل جلالتها
ويبوح لها
بالذي كان سراً

تسير ببطءٍ
يسير – كما علمته – ببطءٍ
تشير إلى لوحة في الجدار – معلقة، ومسالمة
فيوافقها
ويبص
يحدق في لوحة في الجدار ... معلقة، ومسالمة
ثم تنزع رقتها من جهاز البرودة
تنأي قليلاً ...
فيخشى عليها
ويتبعها آمناً في هدوء
وحين تقول له:
انتبه ...
إنني في اندهاشٍ، وحيرة رأي ...
لأن كثيراً من الشعراءِ
يحطون أوسمةً – فوق أكتافهم – ونياشين لامعة للقيادة
أو يجرحون حناجرهم بالهتافِ
لتذهب أصواتهم للجحيم!!

يقول لها ... مثلها:
إنني في اندهاش كذلك ...
يذكر لوركا
وتظهر مأساته في وضوحٍ
فيأتي على عجلٍ منشداً:
(لا تحرميني من ذكراك
دعيها وحيدةً في صدري) [1]
تهاجمه جملة من قصيدته:
(لمجرد أن أسمع
أجراس " بيلا "
احترقت في جسدك
دون أن أعلم أي جسد هو) [2]
ويذهب
يصعد
مرتجلاً بعض أغنيةٍ
واضعاً روحه في البعيد ... البعيد الذي لا يجيء

---

[1] من قصائد لوركا – ترجمة محمود على السيد – المجلس الأعلى للثقافة
[2]

يطاوعها
ويغير بعض عباراته الثابتة
فتسأله عن معارفه
ورؤاه
وبعض حوائجه في الحياةِ
وكيف ستنجو عناصره من غبارٍ – يلوث أشواقه؟
ثم تردفُ:
كيف يوزع أوقاته هكذا،
ويهدرها في حروب القبائل،
أو في الزحام الذي يتزايد؟
تعمد أن تتجاهل أسماء رفقته، وصديقاته!
فقط ...
تتوقف أكثر من مرةٍ ...
تتأمل واحدة:
أرهقته ... فأفسد رقتها
ثم أعلن أسرارها للجميع
وهشم غرفتها ... قطعة ... قطعة
وأصاب رزانتها بكثيرٍ من الاضطراب

أهال عليها شراسته

ثم ودع طيبته

وانزوى

فانزوت

هكذا علقت في فضاء الكلام براءتها

ليقول كلاماً جديداً عليه

ويهذي

فتسقط أقنعة ... تلو أقنعةٍ

فيخاف على نفسه

وتبين هشاشته

وتجيء هواجسه

فيضيع

وتذهب زهوته في الهواء

لذلك:

يكشف عن نفسه دفعةً واحدةً

هكذا

سيؤسس في ثقةٍ واقتدارٍ لقاعدةٍ نصها:

كلما خرجت جملة من سياقٍ
تساقطت الكلمات البريئة عاريةً
واختفى ظلها
بغتةً
أفلتت – دون أي مقدمة
من حديد الحديقة قطته ...
واستباحت أزقته
خربشت
أطلقت صوتها
يتلوى بحاناته
حدقت في سريرته
أعلنت
في ثبات رشاقتها
دون أن تضطرب
هددت فصاحته
أوعزت:
أنها سوف تهجم في غفلةٍ

أشعلت منطقاً لا يشق غبار له ...
حشدت طاقة من حنينٍ
وقالت له:
ها أنا سيدي
وفي رقة:
ها أنا في رحابك أصعد
أعرف أنك مثلي ... تخربش
خربشةً لا تسيل دماً
فيا أولاً
ويا آخراً
ويا فتنتي في الصباح
ويا دهشتي في المساء
أقرر واثقة:
إنني في زمان يعاكسني
أتحرر من قبضةٍ خانقة.

فانثنى

وانحنى

وترجل في أرضها

ذاهلاً

خاضعاً لمشيئتها

ساجداً في هواها

تقدست – الآن – رقتها

حامداً لقليل من المعرفة

طالباً لرضاها

ليذهب – منشياً

صاعداً في معارجها

واصلاً لأوائل أسمائها – برهةً ...

ثم يرفع حيرته:

أينا عاشقٌ

أينا سيقول الذي لم يقل

وانزوى تحت جدرانها العالية

فاته
أنه
منذ عشرين يوماً
يجهز مظلمةً
ويبث مشاعره
ويسيل قصائد أصحابه الشعراء
ليرفعها لجلالتها، وهي تنصت
... موجعة عندما تتلفت هامسة
وهي تخفى كثيراً من الارتباك
وترفع إصبعها لتوجه بعض نصائحها
وقليلاً من الأسئلة
فاته
أنه
سوف يسألها
ما الذي كانت الروح تفعله
عندما يشتكي
من ضراوة أيامهِ

وخشونة أحوالِهِ
وزحام لياليه بالعولمة؟
ثم ... ماذا سيحدث لو أنه
يرتقي سلم العاشقين – سدى
واستعان بقوة صبارة تتصاعد خضرتها في يقين
وهرب صرخته في المدى؟

هامش على متن ١٢ / ٦

طالما عاندتْ
أجهدت روحها
ونأتْ
واستجابت لعزلتها
ورأت
أنها في أمانٍ
فسدتْ لأي رياح ... شبابيكها
ثم قالت له في اضطراب سيخجله:
ابتعد
طالما أشرقت في سماء عواطفه
وارتقت سلمه
سيحضر ظلاً لها
ويحبسه تحت أضواء خلوته الخافتة
سينزع عنه غموضاً كثيفاً

يحدثه
ويشد حبال الكلام
يدير حواراً
ويرسم دائرة حوله بانفعال حرارته
ثم يفتح نافذةً للهواءِ
ويغلق بابي غرفته الضيقة
وسيقرأ في ورعٍ سورةً لجمال أنوثتها
آيةً ... آيةً
ويجود – مثل غناء – تلاوته
ويمد حروفاً
يشكلها
ويفسر بعض مشاعره
ويزيد
ويمعن مبتهلاً
ضارباً مثلا في التلاوة
يصدح: أي الظلال ستخرجني من ثباتي
وأي الفراديس يدخلني حسنها

ويضيع قدرا من الكلماتِ
ليفلت من وجع عارضٍ
ويخمن: إن قليلاً من الحكمة المستعادةِ
تصلح بعضاً من الروح!!
دون اشتباك كلامهما في قلقٍ ...
طالما عاندتْ
ونأتْ
أجهدت روحها
ورأت: قصة خلفها تتسربل في خرسٍ
وارتضت خلوة، وهواء بعيداً
يحضرها في مشاهد شتى
ويخلق أكثر في صورة لقداستها
رابكاً نفسه/ روحه، ظله/ وقته كله، في نزق

١/ ٧

... ولاحظ أن بإصبعها خاتماً من قماشٍ
وأن بلوزتها من حريرٍ
تغوص بداخلها
وتموج
وتسبح
ثم تذوب تماماً
وتخرج ساحرةً من جوانبها
وتحدثه عن حكايتها في صفاءٍ
وطيبة قلبٍ
تبادره:
إنني من بلاد الهنود
خرجت بعائلتي في المساء
وجبت سواحل كل البلادِ
وأفنيت بعضا من العمر

غائبةً

ثم تهت

وجئت – أخيراً – إلى مصر

باحثة عن صديق وبعض أمان فقط

أتقلب تحت قباب مساجدها

وأسير مغيبةً في روائحها

وأمارس بعض فنون التصوف والشعر

أسعى، ولا توقف الروح أي حدودٍ

وأنشد:

(أحبك حبين، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاك)[1]

وأمشي

وأحمل فتنة عدلٍ

تراوغني، كلما ذهبت وجهتي في جميع الزوايا

وأسجد حمداً،

لأن ملائكة يسهرون على راحتي.

فاندهش

---

[1] من أشعار " رابعة العدوية "

وارتبك
ثم علق منسحراً
طرباً
هائماً ...
سائراً صوبها في ثبات، مخدرة كل أعصابه
يخاطبها حائراً:
اتركيني
أخلص نفسي من اللبس والارتباك
اسمحي لي
أصلي، ولو ركعتين اثنتين
ليغفر لي الرب ما قد تقدم
أو ما تأخر من خطأٍ في الحياة
افتحي لي إذن بعض أبواب روحك
وانتظريني
لكي أستفيض لشرح أموري البسيطة والملغزة
وهاتي يديك المضمختين بحكمتك الواسعة
قبل أن تذهب الروح نحو السماءِ
وقبل انزلاقي إلى حفرة ... غيلةً

وحتى تضيق المسافة بيني وبينك
بصي إلى عاشقٍ سيصير خيالاً
ويسهر تحت جدارك
محتشداً لظهورك في أي وقتٍ
ويحمل خرقته
ويجهز شكلاً من الاحتفال
وطقساً يليق بمقدم سيدة السيداتِ
ومستسلماً للذي يتقافز تحت الضلوعِ
وأطرقَ حتى تقول له أي شيءٍ
وأعلن كل حكاياته لسعادتها
واستراح بغرفته لحظةً
ولكنها لم تقل جملة واحدةً
ولم تعطه فرصةً ليقول لها:
إنني أتألم تحت مظلتك الواقية
وهامت بأوديةٍ
وشوارع صامتة
واستعدت لكي تنصرف
فاستعاد فصاحته، هادئاً

ثم قال لها في ابتسامٍ
وحكمة قلب سليم، ستدخله جنة الخلد حتماً
وتدرجه في صفوف الدراويش والشعراءِ
ومن كشفت في الخلاء سرائرهم:
إنني تائه
ووحيد، وأشعر أن منازل أهلي تضيق
منذ أن هجرت جسدي العافية
إنني
منذ أن دخلت خلوتي عتمةٌ
والضجيج يطاردني
إنني في ذهول عظيم، وفي دهشة وشرودٍ
أقول لنفسي:
سأبحث عن حكمةٍ تشبهك
وأسكن في بيتها راضيا
وأجمع بعض قساوسة وشيوخٍ
وقادة ثورات
أجمع بعض مواعظهم
وأسير على هديها طائعاً

طاغور يدخلني في رحاب حدائقهِ
يتقدم ناحيتي
واضعاً في سريرة نفسي شجاعته
وطموحاته
راغباً في محاورةٍ بيننا
أستريح
وأحلم كل مساءٍ بجملته:
(لا أستطيع أن أختار أحسن الأشياء
ولكن أحسن الأشياء هي التي تختارني) [1]
وبلادك
تلك البعيدة
مثل بلادي
يهاجمها المحبطون
وأبناء آوى
وبعض الذئاب الطريدة
تلك بلادك
يجرحها السفهاء بأحذية وطأت في الصباح مساكنها

---

[1] من أشعار " طاغور "

ويعذبها – القاعدون على قلبها – المترفون
ويغرقها في بحار من العبث الحاقدون
ويكمل في حسرةٍ وانفعالٍ يوتره:
إن أرضك
تلك القريبة
تشبه أرضي
سأجعلها مسجداً
وأصلي بها
وأسلكها كطريق
ومتكأ
أستريح بها
وألوذ بأشجارها
حينما يتهددني خطر الفاتحين
أغني لأطفالها القادمين
فتنهض خضرتهم من نعاسس طويلٍ
أموت وأحيا لرفعة أعلامها في السماء
هكذا سوف أمضي

لكي تتذكر روحك كل صفاتي
ووجهي ... وروحي
ودقة قلب تقلبه الرغبات
ورائحة أطلقت في المكان مودتها
وبقية جرح قديم
يظل كشاهد حرب يطاردنا دائما
ووشماً على جسد، سأجن به
يا إلهي
صنعت فأتقنت
حتى بلغت وصورت بعض وجوهٍ لذاتك
وشماً يقوم ويصعد بين صداقتنا/ شامخاً
وكي تلمسي في حنيني إليك بكائي
وضعفي تجاه صفاتك
حتى أقوم أمامك
منجذباً تحت تأثير رائحةٍ
أسلمتني لساحرةٍ
أطلقت في الفضاء بخوراً

ومندهشاً بين أسئلة حيرتني
فأخرج للناسِ
أسمع ما يتردد في طرقات المدينة عنك
وأرقب أعداء خلوتك الفاتكين
يريدون نفيك
أو يطلبون قتلك
يجيء بهاؤك
في ثياب مطرزة، تنشدين:
(أنا وا   أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيهاً)[1]
ولاحظ أن طفولتها
تتسرب في الكائنات المحبطة
تطاق في كل ركن شقاوتها
وتطيل تأملها
في ضياء سيصحبه، غائباً، حاضراً، طيعا، نحوها.
ثم تلمح نوراً يجيء من الباب
باغتها بسؤال سيسعدها!
أي اسم لك

---

[1] من أشعار " ولادة بنت المستكفي "

ومن أي عصرٍ أتيت

وأي العواصف

قلبت الكائنات جميعاً

وجاءت بنا من بلادٍ

وحطت بنا في بلادٍ

وألقت بأحلامنا هكذا

فلاحظ أن طفولتها تتشابك

تنبت في كل زاوية وردة وسؤالاً

تؤلف بعض أغان لطفل يشاغبها

ويشير إليها

ويرفع حاجبه ... فرحاً

ويحدق في وجهها، مبهجاً

فترنو إليه

وتحني أنوثتها طاعة لقيامته

وتقوم

فتنسى بلوزتها

وحكاية غيبتها عن بلادٍ بعيدة

وطاغور تتركه في حديقتها
وتلاعب طفلاً صغيراً يلاعبها
ثم تركض ذاهبةً في ذهولٍ
ومسحورة بشعائرها
وتغادر أصحابها الطيبين

هامش على متن ١ / ٧

أتابعها في جميع الجهات

وأقرأ أحوالها في الصحف

مرة يتشابك إصبعها بأصابع شاعرةٍ طفلةٍ

فتغازلها

وتؤاخذها في هدوءٍ

وتنصحها

وتقول لها:

انهضي في الكلام

وكوني محصنةً من سعالٍ يطارد صدرك

صوني نبالة روحك

واستيقظي عندما يفتحون شبابيكنا الواهنة

يسرقون بخفتهم وفجاجتهم

نورنا يدخلون

وأعينهم ستمزق أجسادنا
قطعةً ... قطعةً
ويدرسون فوق قلوبٍ تئن
وروحٍ تحن
إلى نزهة في الخلاء
مرة سأقابلها ... صدفةً
عندما أتراجع للخاف أكثر من خطوةٍ
وسأشهدها وهي تسلخ وعلاً
وتجلد راقصةً
وتعنف راهبة أيقظتها من النومِ
كنت أراقبها وهي تفتح تلفازها ... صدفةً
ثم تجلس بين أشقائها ... خلسةً
وتشاهد مسخرةً فتجن
فتصرخ باكيةً:
ضيعوا فتنتي ... ضيعوا فطنتي.
ثم تقذف بعض حجارتها في الهواء
وتذهب – مجبرةً – لحديقةِ أوراقها

لتجدد في دأب وسرورٍ حشائشها
وتنام على خضرة في العراءِ
مرة سوف ألمس بعض إشاراتها لحنيني إليها
أتابعها
وهي تحلم
أو تتنفس
أو تتحسس أوتارها في جنونٍ
وترقص مختالةً في بلوزتها الواسعةِ
وتشرب كأس سعادتها، وحدها...
وحدها ستنفذ – تحت سماء لعزلتها – وعدها
وتشكل محكمة من قضاةٍ
وبعض جنودٍ
وأمنية واحدة
وتغني لوجه طموح، يفاجئها
وأجوبة لا تجيء
وتغضب حين ينام الجنود
وتعرف أن قضاةَ مدينتها مرتشون

سأتبع في دأب وأناةٍ
مسيرتها
وبياناتها
كلما قرأت بعضها في هدوءٍ ...
أراقب أنفاسها
عندما فرحت في صباح جميلٍ
وراحت
لترسل لحناً شجياً
وتشرب شاياً برائحة الياسمين
أقلدها
سوف أتبعها
في الطريق إلى بيتها
ستلملم بعض حوائجها
وتعيد فصاحة مكياجها
ثم تدخل باب عمارتها
وتهرول صاعدة درجاً واسعاً
وتدق على باب شقتها

فأعود
وأدعو لها بالسلامة
أدعو لها أن تنام قريرة عينٍ
يحيط بها الفرحون
وتحرسها الفرحات
فتحلم مثل عصافيرها في أمان

١٥ / ٧

ولم ينتبه أنها غيرت غرفة
وأهالت عليه كثيرا من الذكريات
التي حملتها إليه برمتها
حصنت نفسها من شوارعه
ثم أعطت للوحاتها موقعاً بارزاً
واستفاضت تحدثه عن مشاغلها
ورؤاها
وعن وجعٍ دائمٍ يتفجر ليلاً
ويضرب أعمدة الروحِ
عن تعبٍ يتسلل
عن قلق فادحٍ
وركام من المشكلاتِ
وبعض متاعبها المستفزة
عن عملٍ لا يكف

ودائرة لا تنام
وعن وطنٍ لا تحس به
وأسئلة تتقافز في الليل
تحرمها من نعاس تقاومه
وتغلق أبوابها في المساء
تظل مسهدةً
وتقوم تضيء مصابيحها
وراحت تعدد، كم مرة رحلت لبلاد بعيدةٍ
ونشرح تجربة في التصوفِ
تجعلها بين حدين
توقفها بين قوسين
حائرة:
أي قوس سيكشف لي عن طريق الأمان؟
ويدفعني للحياة التي في الحياة
وللناس حيث أراهم أناساً
وكانت تقول له في سلامة قلب:
أود

وأرغب في أن أزور مدائن فاضلةً
وأن أستقيل من الفزع المتواصل
أصعد مرتفعاً للأمان
وأنشد قدراً بسيطاً من الحب
أرقد فوق سرير صغير – فحسب
وأغمض عيني – هادئةً
ثم أحلم أن ملائكة يحرسون منامي
وقالت:
سأكتب تجربتي كلها
وأحفظها في نصوص مقدسةٍ
وأحملها للسماء
لكي أتخلص من عبئها
وأرفقها بالرسائل والذكريات القديمة
والألم المتعاظم
والأغنيات الحميمة
أمزجها بروائح أمي
سأنفض كل ضجيج يعوق خطاي

وفي ثقةٍ سوف يحسدني الأصدقاء عليها
سألقي بكل الذين يحيطون بي في انتباه
وأرحل نحو متاهة روحي
لأكشف بعض أزقتها
وأحاول أن أتفادى مخاوفها
وأصور بعض وجوهٍ لذاتي
وأخلع عاريةً
وأهيم
سأترك تلك البلاد التي قهرتني
وحطت علي قيوداً
سأكسر الحاقدات عليها
أهشم أقفاصها
لتطير
وأكتب ملحمةً
وأمارس وهماً جميلاً
سأصعد نحو سماء

ستأخذني من يدي

وتنقذني من صغائر ناس عتاةٍ

يحطون أسوارهم في طريقي

أغني كما كنت منذ الطفولة

أغنية للذي سوف يأتي:

(لقد وجدت

ما هي الأبدية

هي البحر ممتزجاً بالشمس) [1]

وأرفع نفسي

إلى اللا حدود

وأصنع ثقباً ونافذةً في السماء

لكي أتماهى

وأفنى وجوداً

وأفنى صعوداً

إلى البحر والشمس

للمغريات البعيدة

حيث الحياة ... الحياة

---

[1] من أشعار رامبو

هامش على متن ١٥ / ٧

ستأتي طزاجتها من بعيدٍ
وتمسك مكحلةً
وتقلب مرودها
وتخطط في دأب صورةً لطفولتها
ربما ستضيق كثيراً بغربتها
وتنوء بأحمالها برهةً
فتخرج من خلف بروازها فجأةً
وتظهر في قوة في المنامِ
وتشعل أطراف روحك
- مولعةً بالحريق –
فتكشف عنف مشاعرها في وضح
تبادرها في وداد
وفي ثقةٍ سوف تسألها:
- كيف أجيء إليك؟

حتى أغافل حراسك الواقفين
وأخدعهم
وأمارس بعض ألاعيب شعوذتي
وأخش إلى غرفة الياسمين
وأجلس بين حكايات أهل يحبونك
وأحسب نفسي من البيتِ
أكذب – حتماً
حتى أواصل خدعة روحي
وألبس ثوب طبيب المدينة
أصرخ في الخدم العارفين بأسرارها
وأنهرهم صائحاً:
أريد الأميرة!!
كيف أصير إليها!
أعالجها من سعال خطيرٍ
وضيق يعوق التنفس، يزعجها دائماً ...
أين الأميرة يا خدم القصر ...
إنني حكيم البلاد

أعرف ماذا أقولُ
وماذا سأفعل في كل ثانيةٍ من حياتي!!
وأول من يكشف السر
قبل انتشار الوباءِ
سأربكهم غالباً
وأتركهم ذاهلين
وأجعلهم يشعرون بحجم بلاهتهم
فيجوبون في خبل طرقات الحديقة
يقتحمون عليها خرافتها في جنونٍ
وفي مهرجان التخبط والاضطرابِ
سأدخل ...
مؤتزراً بثياب الوقار
ومبتسماً
سوف تغمرني حالة الانتصار
وزهو سيشعرني بذكائي
أشاهدها
وهي جالسة في خميلتها

حولها الياسمين

وبعض وصيفاتها المخلصات

يسلينها بالحكايا

ويأخذنها في هدوء إلى عالم مدهشٍ

سأدخل ...

منتشياً

أنحني في جلالٍ شديدٍ

وأبذل بعض جهود لمدح أنوثتها أولاً وأقـدم فـي خجـلٍ –

أتصنعه – باقة من ورودٍ

وبعض سنابل قمحٍ

تدل على

وأرجع للخلف في مشهدٍ سوف يعجبها

ثم منحنيا

أستقيم

وآخذ وضعا قريباً لرؤيتها

وأحدد زاوية في المكان

وأنشد:

(دموع العين فاضت من مآقٍ   وقلبي ذاب من أكثر احتراقِ

فلا ناري طفاها دمع عيني   ولا دمعي يفيض من اختناق
وبي أسفٌ على أسفٍ وحزن   وهم فوق هم واشتياق
على زمن تقضى في نعيم   بمصر والعلا والعز راق) [1]

أعيد عليها مشاهد فصل قديم من القصص العربي
وأهذي بقصة أنثى
وساحرة أذهلتني
وراحت تراوغني
فأراوغها
وتشاغلني
فأشاغلها
ثم تظهر واضحة تتنامى
تسربلني في حراسة أعوانها
وتحفزني في ضيافة أشواقها
وتجيء:
بهيئتها العربية كاملةً
دون أي مساحيق ...

---

[1] أبيات نسبها ابن زنبل إلى طومان باي ضمن قصيدة من مائة بيت، وردت في كتاب " طومان باي " للدكتور عماد بدر الدين غازي

مبهرةً في ضياء
ويغشى علي
فيجذبني صدرها في حنانٍ،
-   سأعرف ذاك بعد إفاقة روحي -
وتخرجني من غيابي
وتدخلني في حضور مباهجها
فأهرول مرتبكاً نحوها
وأمرن نفسي
على أن أكون حكيماً كما أدعي
وأدرب روحي لكي تتعلم نوعاً من السحر
لكنني سوف أسقط تحت مظلتها ساجداً
سأشعر أن أنوثتها قفص وملاذٌ
فتأسرني ساعةً
وتطلقني في الهواء قليلاً
أشم روائح مسكرة
وأشوف عجائب عالمها

ثم تجلس
هادئة مثل شمسٍ
وفارعة كفضاءٍ
وعالية كسماء بعيدةٍ
وتأمرني
فأطيع
وترسل أحبال فتنتها
وتقيدني
أترجل في أسر نظرتها
ثم أقرأ طالعها ... حائراً
وأرفع روحي إلى درج شاهقٍ
أتهيأ أن أشرح المستحيل
وأفصح عن رؤيتي:
- في الحقيقة – سيدتي
إن مركبة وحصانين يقتحمان طريقاً
وطيراً يحلق فوقهما يتبدل فوراً
ويصبح مثل دخانٍ

ويعلو ... يذوب تماماً
يصير كبحر كبيرٍ
وتهدر أمواجه
ثم تخفت بعد قليل، وتخبو رويداً رويداً
تضيع ملامحها
ثم يعلو هتاف، وترقص أغنيةٌ
وأشاهد بعض جنودٍ
وحراسك الواقفون يشيلون أسلحةً
يهتفون بروحك
أنت تبصين للخلق شامخةً
وبهاؤك يسمو
وعيناك حارستان على بلد تائهٍ
ويداك تشيران في فرح للبعيدٍ
- في الحقيقة – سيدتي
إنني متعب وعليلٌ
ويعرف كل الذين يحيطون بي
إنني عاشق لجلالك

والعشق يفسد – مولاة روحي – لرؤية قلبي
ويدفعني لهلاك أكيدٍ
وأهلي يقيمون في بلدةٍ من بلاد الصعيدِ
وينتظرون مجيئي
لأنقذهم من ضياع هويتهم
ينظرون إلي
ويرتقبون الهدايا
وخيراً وفيراً يعم عليهم
سأجلبهم عن قريبٍ
وسيدتي سوف تأتي طزاجتها من بعيدٍ
وقلبي يحيرني دائماً
ويسير إلى حيث تهوى خطاه
إلى شرك كاملٍ
لا يهاب مشاجرة
والجنود المحيطون يعترضون طريقي
وطير يخايلني يتنامى
ويصبح في لحظة كحصان

أحاول أن أتفادى صهيلاً سيغرقني
وأبص إلى قمر في السماء
فيرشدني كل شيء إليك
وأصعد نحوك
غائبة كل أشكال صحوي
ومرتجلاً قصة
فأشم طزاجتها تتعاظم في وهجٍ
في الفضاء

دعاء يناير

... فهل كنت أذرع سكتها
جيئةً وذهاباً
أهرول نحو شعائرها
صاعداً صوبها
وأصير على عتبات المحبة
مرتبكاً
خائفاً
وأقعد وسط حديقتها
وأمارس بعض شئون العبادةِ
أركع
أسجد
أرفع كفى نحو السماءِ
ومبتهلاً
داعياً أن تكون محصنةً من غرورٍ يهددها

هائماً بين أشجارها
أتساق نخلتها سائلاً:
أأنت التي خلع البحر أقنعة لبشاشتها
واستجابت طبيعتها للفضاء؟
أعيد السؤال:
أأنت التي في السماء القريبة
راحتْ
وغابت
وأبت
وصلت
وولت
وظلت تحدثُ رب العبادِ
وتشرح بعض تفاصيل موجعة
وتقول له:
أعطني حكمةً
وأعطهم كل هذا الخلاء
أعطني فطنة وأماناً

لكي أستطيع مقاومة الزمن الصعب
اهدني
ببصيصٍ من الضوء
يفتح عتمة روحٍ
ويسلمني لبلادٍ تجنبني ويلها؟
تظل تفضفض للحكم العدل
ترفع قدراً من الدعوات
وتسجد طالبة أن تكون ملائمة للطوافِ
سأسأل:
أنت التي في البلاد البعيدة
ترفع دعوتها للمجيب
وتفتح باباً كبيراً لحكمتها
ليخش الذين يحبون صعدتها في الهواء؟
سأسألها في وضوحٍ،
ودون ارتجافٍ يهز ثباتي
ويهدم أبنيتي
ويدب كدب يرج حياتي

سأسألها في شجاعة نمرٍ، سؤالاً عميقاً:
أأنت التي أشعلت بابها؟
وأصاخت لنبض أنوثتها مرةً
واستفاضت كثيراً
ترتب ألوان لوحتها
وتفسر أحلامها الغامضة
وتكتب أحداث رحلتها في الصباحِ
وترجع
قابضةً في المساء على جمرةٍ حارقة؟
فهل كنت أذرع سكتها
عائقاً مارقاً
لأنين أصابعها حين يفسدها الاضطراب؟
وأقعد
أقرأ كل حروف كتابتها
وأخش إلى عزلة واختناقٍ
وهل كنت أصعد سلمها
هائماً في حقيقتها؟

آملاً أن أكون خفيفاً
لأركع في أرضها
ثم أحلم في يقظة برؤاها
وأدخل من بابها العلني
وأذهب منجذبا لسماها

شغب مارس

في الفضاء الذي ضمنا
واستجاب لرغبتنا
في الصعود إلى نجمةٍ في السماءِ
وأرخى عباءته
مانحاً نفسه كله / لشقاوتنا
ساتراً عرينا
هزنا
واستعادت أصابعنا قوةً
لتقول الذي لم يقل باللغة
وفي شغف العاشقين لبعضهم البعض
راحت
تسرب أغنيةً في اندهاشٍ
توسع أمكنة للشبق
شدنا

أننا منذ أن بدأت
تتلاعب أجسادنا
في انزلاقاتها المربكة
وتقلب كل حقائقها
خطوةً ... خطوةً
ردها صحوها
للملائكة الطيبين
وللسنن الهالكةِ
في الزمان البعيدِ
تراءت له
في الزمان البعيد
تراءى لها
ولكنها أطلقت صيحةً
أغرقت كل أحلامها المورقةِ
في الفضاءِ
الذي شدنا

وارتضى أن يكون غطاء لنا
مدنا بسخونته
فجأةً...
هالنا
أنه
حطنا في القيود
وفي التجربة
فلم نستطع
أن نهدئَ روعتنا
ولم ننفلت
لحظةً
من جنون الشغف

قلق أبريل

ربما فضفضت
أو تمادت لتشرح موقفها للملأ
ربما ستنادي لشخص وحيدٍ
وتحكى له عن هموم ثقيلة
وتسرد أحوالها في تراخٍ شديدٍ
ولن تدرك العبث المستقر على وجهه
ربما جاهرت
أنها في المساء
ستخرق عزلتها
وتكون فرقة رقص
وتذهب في العزف مبهورةً بأصابعها
ثم تسهر حتى الصباح
ربما صاحبت شبحاً يؤتمن

ويخبئ أسرارها في سريرته
ويجن بصحبتها
ويخفف أوجاع غربتها
تحتسى جرعةً من طمأنينة
وتنام على صدره في أمانٍ
فيحملها ... واهماً أنه عاشق من طراز فريدٍ
ربما شيدت من هواها المعذب صرحاً
وأنشودة للوطن
واستعادت براءة أزمنة من بعيدٍ
ربما فتحت في المكان الغريبِ
خزانة أسرارها
واستجابت لأخيلةٍ
تتفتق في سرعة مذهلة
فتجلت طفولتها ... وجهها المبتسم
ربما أفلتت لحظةً
من خيوطٍ تسربلها
في اضطرابٍ شديدٍ، وتخنق أشواقها

وتتركها في مناخ أليمٍ

وفي غرفة من شجنِ

ولكنها ... وحدها

وحدها

في سريرٍ صغيرٍ

وتحت مظلة أعدائها الواقفين

ستلقي بكتلتها في وهن

مكان له تاريخ

ردني كل هذا الهواء بغرفتها للحياة
ردني صوتها للنشيدِ
وللأغنيات البعيدة في الروح
حين تقلبها المفردات البسيطة
هزني
أنها فوق كرسيها الخشبي
تمارس لعبة خلق الحياة
كآلهة حاذقةٍ
كعصفورة تفتح النص بالزقزقة
غرفة من هواءٍ
ومكتبة من عبق
همسة من حنينٍ
وأجهزة من شبق
هكذا تتقلب روحي النشيطة بين شجيراتها

هائماً بالمودةِ
والفتنة الطازجة
غرفة من نسيمٍ
تجند كل طراوتها
للذي ينتظر،
فوق صخرته، لمسة من حرير أصابعها المجهدة
أفرغت ذاتها
في قلوب الأحبة والأصدقاء
لتعلن في قلقٍ
أنها في الخلاء المكدس بالأسئلة،
ستخلع أثوابها للجميع
وتمنحهم كل أسرارها
غرفة أفلتت من حريق مؤكد،
ومن عبث الأدعياء،
ومن ثقةٍ فاتكةٍ،
ومن هوس المتعبين
ومن خرس الخشب المنتظم.

وتمادت لتفتح أبوابها المغلقة،
وتشرب من كأسٍ دهشتها المفرطة
ردني كل هذا الجنون المباغت ... دوماً!
برقصتها المبهجة
فأدني كل هذا الهواء الذي يتناسل
للرئة الضيقة
حطني شغفٌ في حنينٍ
وأسئلة تتوالد فوق الرفوف
وأجوبة يتفتق منها الوطن
غرفة أيها الأصدقاء
تطاردني في منامي
وتمثل – شاخصةً –
كلما قذفتني الأماكن خارج أسوارها الشاهقة
وحين يهددني السيئون بأسلحةٍ لامعةٍ
أكلمها في هدوء
تكلمني!
وتلم شتاتي المبعثر

حين أفيض وأهذي لها: غربتي مرهقة.
قل لها يا هواء
إنني في العراء
وفي وحدةٍ فاتكة

زمني

سيسألها
كلما قفزت في الفراغ المراوغ دهشتها
كلما أطلقت صرخة هشمتْ صمته
وبحجم مرارتها
أغلقت هوة القلب
ثم تتالت على سفح الروحِ
نوبات كارثة محدقة
لتصيب هشاشتها بالجنون
سيسألها غاضباً:
لماذا تهابين هرولة الزمن المتواصل؟
يوقظها ... ربما
ويحرجها ...
ثم يزنقها في الزوايا التي هاجرت للبعيد
وأقلقت الذاكرة
لينهضها من نعاس طويل
ويسلمها – ربما – لحرائقها الدائمة
ويدلقها في فضاءٍ من الأخيلة

سيسألها
كلما ضربت في الضلوع العليلة أجنحةٌ شائكة ...
ثم يشعل ذاكرةً لا تنام
ويخبرها قاصداً: " قبضة الاضطراب أتت
لا فكاك
ولا هرباً من دبيبٍ الزمن
فاستحالت إلى وجعٍ مزمن
واستعادت فراستها في اكتشاف البشر
خمنت أنه يستعد لإشعال شمعتها
ليضئ بها غرفة أظلمت
ويبدد وهماً يلم به
فطنت لكثيرٍ من الأسئلة
سيسألها – شرساً – مؤذياً
قاصداً أن يهد عزيمتها
شاهراً فهمه لطبيعتها
رافعاً سيفه
ومتبعاً طرقاً

لم تكن مطلقاً منهجاً لمسيرته في الحياة
يباغتها
ويقلقل رغبتها في الهدوء،
ويربكها بالسؤال السخيف!
بماذا ستؤنس غربتها هذه؟
دون أن تنتبه، للذي يستفيض لها
شارحاً وجده
ويهيم بها مادحاً
ويصلي على عتبات الديار
ويعبر منسحراً كل يوم أمام شبابيكها
وينام طريح الرصيف
ومنتظراً – نظرةً – مرةً
أو إشارة إصبعها مرة ثانية
ليهرول صوب أنوثتها جامحاً
رافعاً رأسه في الهواء
ومستسلما في خشوع
أقول لها:

(لن أتكلم – لن أفكر بالمرة
لكن الحب اللامنتهي سيصعد بروحي) [1]
سيسأل في أدبٍ واحترامٍ
ويوقفها
وهي تعبر مسرعةً
ويحيط بها الناس
منبهرين برقصتها
ورشاقتها
وبقفزتها في الهواء
وألوان فستانها
بابتسامتها عندما ستضيء مدينته
وبعينين شاعرتين، ونافذتين
سيسأل في وجل بعدما كشفت خطةً دبرت!
ألم تشعري إلى الآن ... ماذا أريد؟
ألم تدركي – في الصباح – نحولي،
وصفرة وجهي
وتيهي

---

[1] من أشعار أرثور رامبو.

وربكة حالي
وماذا أخبئ بين الضلوع؟
سيسألها عندما تتلفت:
كيف إذن
ستقضين ليلتك المقبلة
وأنت تخشين وحشة أزمنة موجعة؟
سيسألها ... هادئاً
ومبتهلاً للعلي القدير
بأن يسع الوقت
حتى يقول لها:
لماذا تحطين مشنقة في طريقي إليك؟
وتسعين جاهدةً في خرابي؟
لماذا تكونين أبعد من نجمة في السماء
وأقرب من طرقةٍ – دائماً –
فوق بابي؟

إشارات

*** شعبان يوسف**

- مواليد ٧ / ٤ / ١٩٥٥

* صدرت له عدة دواوين منها:

- مقعد ثابت في الريف، معاودات، كأنه بالأمس فقط
- تظهر في المنام كثيراً، أكثر من سبب للعزلة

*** ميسون صقر**

- شاعرة وفنانة تشكيلية من دولة الإمارات العربية
- حاصلة على بكالوريوس الاقتصاد والعلوم السياسية
- تقيم بالقاهرة منذ سنين .

* من أعمالها الشعرية:

- هكذا أسمي الأشياء، الريهقان، جريان في مـادة الجسـد، البيت، الآخر، في عتمة، مكان آخر، السرد علـى هيئتـه، تشكيل الأذى، رجل مجنون لا يحبني، عامل نفسـه ماشـي (بالعامية المصرية).
- أقامت عددا من المعارض الخاصة في كل من:

القاهرة – الإمارات – الأردن – تونس، البحرين

- شاركت في معرض للفنانات العربيات بالولايات المتحدة .

* من معارضها الفنية:

خربشات على جدار التعاويذ والـ ذكريات لامـ رأة خليجيـ ة مشدوة بالحرف واللون، والوقوف على خرائط الرومانسية

- السرد على هيئته والآخر في عتمته .

الفهـــــرس

صدر مؤخراً عن (أصوات أدبية)

٢٦٨ – مكاشفات شخصية .... شعر: بهاء جاهين
٢٦٩ – أقانيم .... قصص: إسماعيل البنهاوي
٢٧٠ – مرايا الذات الأخرى .... رحلة: صبري حافظ
٢٧١ – ديوان غزالي .... كابتن غزالي
٢٧٢ - الصنم .... رواية: أشرف الخمايسي
٢٧٣ – منازل القمر .... قصص: سمية رمضان
٢٧٤ – مواقيت البهجة .... قصص: عزت القمحاوي
٢٧٥ – عضم خفيف .... شعر: سعدني السلاموني
٢٧٦- حافة الود .... رواية: نبيل نعوم
٢٧٧ – صانع الصدمات .... قصص: أسامة خليل
٢٧٨ – السبعة .... شعر: عادل عزت
٢٧٩ – عشرين سنة على سلم المتر...... و شعر: حمدي عبد العزيز
٢٨٠ – ضرورة الكلاب في المسرحية ...... شعر: جرجس شكري
٢٨١ – نجع السلعوة .... رواية: أحمد أبو خنيجر
٢٨٢ – طائر الفخار .... شعر: محمود نسيم
٣٨٣ – كائنات هشة لليل .... رواية: صلاح والي
٢٨٤ – قبض الريح .... قصص: شحاتة عزيز جرجس
٢٨٥ – أغادر جسدي .... شعر: أحمد السواركه
٢٨٦ – بعدين .... شعر: صلاح الرواي
٢٨٧- الوفاة الثانية لرجل الساعات .... رواية: نورا أمين

٢٨٨ – عبير الكنمجات .... شعر: عزت الطيري
٢٨٩ – نتهجى الوطن في النور .... شعر: سمير الفيل
٢٩٠ – رائحة النعناع .... رواية: حسين عبد العليم
٢٩١ – امرأة يروق لها البحر .... شعر: عبد الناصر هلال
٢٩٢ – قوة الحقائق البسيطة .... شعر: عزت عامر
٢٩٣ – شهيد الوطن .... شعر: متولي عبد اللطيف
٢٩٤ – الكوشة .... رواية: أمين ريان
٢٩٥- عالم تاني .... شعر: عمرو حسني
٢٩٦- جاليري يعرض صوراً مسروقة .... شعر: أحمد مرسي
٢٩٧ – حديث الحجرات .... قصص: مجدي حسنين
٢٩٨ – أبناء الخطأ الرومانسي .... ياسر شعبان
٢٩٩ – بيت النجار .... عبد الحكيم حيدر
٣٠٠ – موسيقيون لأدوار صغيرة .... فتحي عبد ا
٣٠١ – بدرية الإسكندرية .... حسني بدوي
٣٠٢ – المسروق فضاؤه .... يوسف وهيب
٣٠٣ – طريق للحفاة .... محمود قرني
٣٠٤ – قبل وبعد .... توفيق عبد الرحمن
٣٠٥ – حياة عادية .... محمد صالح
٣٠٦ – أحلام بدرية .... على الشوباشي
٣٠٨ – الحب والحزن والحنين .... سامي فريد
٣١٢ – أحلام محرمة .... محمود حامد
٣١٣ – ذاك البيت الذي تنبعث منه الموسيقي .... رنا عباس